محنتان متشابهتان

خلق القرآن عند المسلمين ، تجسد المسيح عند المسيحيين

وحدة التطور التاريخي نظرية خلابة أخذ بها بعض المفكرين المحدثين وأنكرها البعض الآخر [1] وأشهر من تعمق فى بحثها إلى أبعد حد ، المفكر الألمانى سبنجلر ، وأسرف فى إثبات نواحيها المتشعبة فى كتابه الضخم « اضمحلال الغرب » . وهو كتاب خطير على مافيه من غموض وتعسف وإسراف . ولا يستطيع الإنسان أن يتجاهل نظريات مفكر يرى قبل الحرب العالمية الأولى أن الدين الجديد الذى يقوم فى العصور الحديثة ، يقوم فى روسيا ، ويتحقق ذلك بعد بضع سنين عند قيام الشيوعية ، ويرى أن عظمة باريس ولندن ستزول وتحل محلهما موسكو ونيويورك ، وكل ذلك عنده نتيجة حتمية لتطور المدنيات المختلفة ، وأن هناك تطوراً واحداً كان لا بد أن تخضع له الحوادث فى الماضى ولابد أن تخضع له الحوادث فى المستقبل .

وليس لمثلى وقد نشأ على دراسة الظواهر البيولوجية إلا أن يؤمن بصدق هذه النظرية . فالجنس البشرى وأجزاؤه التى تتكون منها المدنيات المختلفة والأمم المتباينة ، كل هؤلاء كائنات حية تتبع قوانين التطور العامة . والناس كلهم شاهدوا من قديم أوجه الشبه بين الكائنات الحية ولكنهم لم يدركوا كنه هذا التشابه قبل أن تتبين للعلماء نظريات التطور . وكذلك أدرك الناس قديماً أن التاريخ يعيد نفسه ، ولكنهم لم يفهموا أن التشابه بين الحوادث التاريخية ليس تكراراً ولا عفواً ، ولكنه تحقيق لقوانين التطور الحيوى .

---

(١) أنكر فيشر فى مقدمة كتابه « تاريخ أوربا » أن يكون للتاريخ سير معين أو قوانين ثابتة فهو يرى أنه هو شخصياً لم توهب له القدرة على رؤية نظام معين يسير عليه تطور التاريخ وأنه لا يرى فى التاريخ إلا مناسبات تقوم عليها ظروف تؤدى إلى وقوع الحوادث التى نشهدها .

وقد لا يتسع المقام الآن لشرح ما يدعونى إلى الإيمان بهذه النظرية ولا إلى إظهار الانقلاب الكبير فى التفكير الإنسانى لو أخذ بها جمهور المفكرين، وتبينوا أن الاتجاه العام للتاريخ لا سبيل إلى تغييره، وأن الحوادث الفردية لا تؤثر فيه إلا أثراً محليًّا مؤقتاً، وأنه مثلا لم يكن بد من هزيمة ألمانيا فى هذه الحرب، ولو قدِّر لها أن تنتصر بقنبلة ذرية لكان ذلك خطأ فى التاريخ كما تخطىء الطبيعة، فتكون الكائنات المشوهة كما ادعى سبنجلر أن النصر فى موقعة اكتيوم كان خطأ فى تطور التاريخ، وكان يجب أن تنتصر كلوباترا.

ومما يدعو إلى إثبات هذا الرأى أن توجد حوادث متباينة كل التباين وهى مع ذلك متشابهة جدًّا فى تطورها. ولم أجد حادثتين تثبتان وحدة التطور مثل محنة خلق القرآن عند المسلمين، ومحنة التجسد عند المسيحيين، فرأيت أن أعرضهما على القراء ليروا مظهراً من مظاهر هذه الوحدة.

ودفعنى إلى ذلك أيضاً أن مؤرخى العرب مثلهم فى ذلك مثل غيرهم من المؤرخين القدماء كانوا يظنون أنهم مركز الكون كله وأنهم وحدهم المسرح الأول للتاريخ، ولم يحاولوا أن يربطوا تاريخهم بتاريخ غيرهم. بل إنا لنجد المحدثين من المؤرخين المصريين لم يحاولوا بعد أن يقربوا بين تاريخنا وتاريخ الأمم الأخرى الحديثة والقديمة. ولو آمن الناس بوحدة التطور التاريخى عن علم واطمئنان لزالت الوحشة بين المدنيات المتباينة وبين الشرق والغرب مثلا، ولسهل على الناس أن يلتقوا فى صعيد واحد حين يعلمون أنهم كانوا يسيرون فى طريق واحد.

قليل من المسلمين من سمع بالجدل حول تجسد المسيح، وقليل من المسيحيين من سمع بالخلاف حول خلق القرآن. على أن كلا الفريقين حين يدرسون هاتين المحنتين سيدهشون حقًّا للتشابه التام بينهما، وسيرون أن الطبيعة البشرية واحدة فى تطور عقائدها ومظاهر إيمانها. وكلا المحنتين أبعد عن التفكير الحديث من أن يثير البحث فيهما عند المؤمنين من المسلمين أو المسيحيين أى أثر يزعج إيمانهم أو يمس شعورهم بحال ما.

وإليكم أوجه الشبه من الناحيتين الفكرية والسياسية.

فمن الناحية الفكرية نرى أن عقيدة المؤمنين الأولين من المسلمين والمسيحيين كانت تتمثل فى الإيمان الطاهر النقى البسيط الذى لا يشوبه التفكير الدقيق فى مظاهر هذا الإيمان، ثم لم يلبث الناس أن بحثوا فى هذا الإيمان وحكموا المنطق

والعقل وتفلسفوا ، ولكن إيمانهم كان لا يزال قويًا فلم يؤد بهم البحث إلى الكفر ، وإنما التمسوا الهداية عن طريق التأويل . وتبين بعد قليل أن بعض هذا الإيمان يجب أن يضحى حفظاً لقدسية البعض الآخر ، وهنا بدأت تنشأ الطوائف المختلفة .

١ — رأى كبار الأتقياء والعلماء المخلصون ومعهم الجمهور أن مما يمس قداسة القرآن أن يقال إنه مخلوق ، ورأوا أنه لم يرد على ذلك نص فلم يستطيعوا القول به ، وكان موقفاً سلبيًا غاظ أعداءهم أهل المنطق والكلام . وأنكر هؤلاء المؤمنون أن يكون لعلم الكلام دخل فى مثل هذا البحث . . وخشوا على أنفسهم أن يؤدى بهم الجدل إلى الانزلاق فى المروق عن إيمانهم الذى يعتزون به ، وأنه ما دام النص الصريح لم يرد عن النبى ولا عن الصحابة بأن القرآن مخلوق فالقول به جرأة على العقيدة الصحيحة .

وكذلك كان بين المسيحيين من يؤمن إيماناً صادقاً بأن الاتحاد بين ثانى الثالوث وبين نفس إنسانية وجسم بشرى كان اتحاداً حقيقيًا دائماً ، وكان ذلك هو الرأى الشائع بين المسيحيين حتى أوائل القرن الخامس الميلادى ، وكان تقديس مريم من أهم ظواهر الإيمان الصحيح .

٢ — الفريق الثانى هم الذين حكموا العقل مع الإيمان ، وهم المعتزلة عند المسلمين هالهم أن يشركوا مع الله شيئاً فى قدمه ، وكانوا يرون أن القول بقدم القرآن يتنافى مع التنزيه الواجب لله على كل مسلم ، وأن الآيات التى يخالف ظاهرها التوحيد المطلق يجب أن تؤول وأن القول بغير ذلك شرك بالله .

كذلك كان عند المسيحيين من رأى أنه لا يليق بالإله أن يكون قد أقام تسعة أشهر فى جسم مريم وأن يكون خرج من أحشائها كما يخرج الناس ، وأبى الأتقياء أن يتصوروا الطهارة الإلهية قابعة فى جسم آدمى غير طاهر ، ولم يؤمنوا بأن الله الذى يشمل العالم يمكن أن يحد من نفسه فى جسم مريم ، وهالهم أن يكون الله قد عذِّب وصلب أو أن علمه كان يشوبه الجهل ، وأزعجهم أن يكون مبعث الروح والأبدية لقى حتفه فوق جبل كالفارى .

رأى هؤلاء أن يفرقوا بين طبيعتى المسيح ، واختلفوا فى ذلك شيعاً ، فمنهم من آمن بأن المسيح رجل عادى وإن كان خير بنى آدم فاختاره الله ليهدى الناس لعبادته ، فلما عمده يحيى فى نهر الأردن حلت فيه روح ابن الله على هيئة روح

القدس فى صورة حمامة ، فلما سلمه الحاكم الرومانى إلى اليهود تركته هذه الروح العالية يتألم ويعذَّب ويصلب .

ومنهم من قال بأن جسم المسيح ليس كالأجسام ، وأنه كان يأكل مع الحواريين دون أن يجوع أو يعطش ، فهو فوق العيوب الجسدية ؛ فالشكل والمادة كلاهما إلهى ، أما الرهبان المصريون فتمسكوا بأن الهيئة إلهية إنسانية ، لما ورد فى التوراة من أن الله خلق الانسان على هيئته .

٣ — فريق رأوا واجباً عليهم أن يبتعدوا كل البعد عن هذه الآراء المارقة فأسرفوا فى تقديس القرآن حتى قالوا إن نطقنا به قديم وأن حروفه قديمة ، وهو شطط لا يسوّغه إلا شدة الرغبة فى مقاومة الآراء المارقة .

ومن المسيحيين من أنكر أن المسيح ولد وكبر ، ومنهم من لم يؤمن بما جاء فى الانجيل عن تاريخه قبل رسالته ، ويقولون إن ما رآه الحواريون لم يكن إلا شبحاً جعله الله القادر على كل شيء فى صورة إنسان ليلقى إلى الناس تعاليمه ، وإن تاريخ رسالة المسيح كان تمثيلا على مسرح بيت المقدس لمصلحة الناس . واعترض عليهم أن مثل هذا الخداع لايليق بالواحد القهار ، ولكنهم كانوا يرون كما رأى كثيرون بعدهم أن الخداع لهداية الناس مباح .

٤ — فريق رأى أن كلام الله يجب أن يطلق على شيئين مختلفين كما هو الشأن فى كلام الناس : الكلام النفسى وهو القائم بذاته وهو الأزلى القديم ، أما القرآن المكتوب المقروء فهو حادث بلا شك .

ويقابل هؤلاء عند المسيحيين من كانوا يؤمنون بفصل السيد المسيح الانسان عن ربهم عيسى ، وكانوا يحترمون مريم على أنها أم المسيح ، وكان يؤذيهم أن تسمى أم الله ، وحذّر أحد البطارقة الناس أن يسموها كذلك وقالوا تلك كلمة لم يعرفها الحواريون ولا التابعون ولم توافق عليها الكنيسة ، وإنها قد تضل البسطاء وتسر غير المؤمنين ، وهى بالضبط نفس الأسباب التى حرم من أجلها المحدثون النطق بخلق القرآن .

واشتد الجدل بين هذه الفرق ، وكان كل فريق يبلغ فى جدله إلى حد معين ثم يزعجه أن يجد نفسه مسوقا إلى القول بما يخشى معه الكفر ، فأصبح الجدل بين المسلمين منحصراً فى القول بأن القرآن مخلوق أو مجعول ، وقتل الناس للفرق بين هذين اللفظين .

وعند المسيحيين انتهى الجدل إلى هل المسيح من طبيعتين أو فى طبيعتين، وقتل الناس للفرق بين حرفى الجر اللذين لا يستطيع الانسان فى هذا العصر أن يجد من الفرق بينهما ما يسوغ هذا العداء الحاد. ثم قرر المجمع الرابع أن المسيح واحد وفى طبيعتين، وبذلك وضع رجال الكنيسة الحد الفاصل بين الحق والباطل وبين الكفر والإيمان وإن كان هذا الفرق أحد من السيف [١].

أما من الناحية السياسية فأوجه الشبه واضحة :

١ — حاجة الداعين إلى عقيدة معينة إلى استعمال القوة السياسية بحمل الناس على الإيمان بها. فالمأمون أخذ على نفسه وهو صاحب الأمر أن يدعو الناس إلى القول بأن القرآن مخلوق حادث، وحمل ولاته على أن يجمعوا الناس ويمتحنوهم فمن قال بخلق القرآن فقد ثبت إيمانه وصحت شهادته، ومن لم يقل بذلك فهو مارق لا تصح شهادته لزيغ عقيدته. ثم اشتد المأمون فى استعمال القوة فرأى أن من لم يقل بخلق القرآن فهو مرتد ويحل قتله، وأمر ولاته أن يمتحنوا الناس فمن لم يقل بقوله ضربت عنقه.

أما عند المسيحيين فلم يبدأ الإمبراطور بحمل الناس على عقيدة معينة فى أول الأمر، ولكن البطارقة فى القسطنطينية والاسكندرية كانت لهم قوة سياسية كبيرة رأوا استغلالها فى حمل الناس على الإيمان الصحيح، فكان القديس كيرولس بطريق الاسكندرية يحكمها فى الواقع وكان يستخدم عماله فى الضغط على الحكام المدنيين وطرد اليهود من المدينة لكفرهم، وذبح أتباعه فتاة كانت تعلم الفلسفة فى الاسكندرية وسلخوا لحمها عن عظامها بقطعة من المحار داخل الكنيسة.

أما نسطورس بطريق القسطنطينية فقد استمد قوته من الإمبراطور فقال له عند توليه الحكم أعطنى الأرض خالية من الكفار وأنا أعطيك مملكة السماء، وبعد خمسة أيام أحرق ديراً لمخالفيه فى العقيدة.

٢ — سرعان ما انقلب الخلاف الدينى البحت إلى خلاف على النفوذ الدنيوى. فمثلا غضب الواثق على أحمد بن نصر ودعا إلى قتاله لقوله بخلق القرآن، وإن كان كثيرون يرون أن سبب ذلك أكثره يرجع إلى ثورة أحمد بن نصر وخروجه عن الطاعة.

---

(١) أكثر هذا منقول حرفيا عن كتاب ضحى الاسلام الجزء الثالث وعن كتاب جيبون اضمحلال وسقوط الامبراطورية الرومانية فى الفصل السابع والأربعين.

أما عن المسيحيين فقد صارت الغايات الدنيوية واضحة جداً فى كل أدوار الخلاف وتدخل رجال قصر الإمبراطور فى المعركة واشتركت فيها أسرة الإمبراطور ينصرون إحدى العقائد اليوم وينصرون الأخرى غداً ، ولم يأنف القديس كيرولس نفسه أن يستخدم الذهب فى ترجيح رأيه على رأى عدوه بل قبل على نفسه أن يعلن فى غموض وعلى مضض ازدواج طبيعة المسيح (وهو ما لم يكن يؤمن به) ليتمكن من حمل الإمبراطور على الانتقام من عدوه .

٣ — أصبح الجمهور المؤمن الساذج عاملا قويًا فى النزاع فى الحالتين ، فكان نفوذ عامة الشعب عند المسلمين فى جانب المحدِّثين والسنيين ، ووجدوا بطلهم المنشود فى أحمد بن حنبل لصلابته واتجهت أنظار رجال الدولة إليه ، ولم يستطع المعتصم أن يقتله كما قتل غيره لالتفاف الناس حوله ، ولو قتله لكانت فتنة واضطر إلى إخراجه من السجن بعد أن ضُرب وعذّب لأن الناس اجتمعوا حوله وضجوا حتى خاف السلطان ، ولعله أعجب هو أيضاً بشجاعته وثباته .

وكان للجمهور عند المسيحيين دور حاسم جدًّا فى هذا النزاع الدينى ، وكان أكثر الناس مخلصين للعذراء لا يريدون أن يعتنقوا مذهباً ينقص من مجدها . وواضح أن التعمق فى بحث طبيعة المسيح لا يوافق بساطة إيمان الجماهير ، فصاحوا فى مجمع أفيسيوس الثانى أن من قسم المسيح فليقسمه الله ولتمزق أعضاؤه وليحرق حيًّا .

ومن غرائب المصادفات أن يلجأ المأمون إلى تجريح مخالفيه أمام الجمهور فيقول عن أحدهم إنه كان يسرق الطعام بالأنبار ، وعن آخر إنه مشغول بأكل الربا عن الوقوف على حقائق التوحيد .

وأن يلجأ رجال الدين فى أحد المجامع المقدسة إلى أن ينسبوا إلى رجال الدين من مخالفيهم أموراً مخجلة ، فقالوا عن أحدهم إن له عشيقة ، وأن بيته كان مفتوحاً للعاهرات وتوسلوا بذلك إلى عزله ونفيه .

٤ — سياسة المجامع وعقدها لحسم النزاع بالمناقشة ، وحدث فى كلتا الحالتين أن أصبحت قرارات هذه المجامع خاضعة للقوة : قوة السلطان تارة ، وقوة الجماهير والأتباع تارة أخرى .

فالمأمون دعا وجوه المحدِّثين مخالفيه فى الرأى وأمرهم أن يقولوا بقوله ، وقد وافقوه على ذلك لأنهم لم يستطيعوا أن يقاوموا السلطان وخاصة أن العقل

والحجة كانت فى جانبه . وهذه الحادثة فتّت فى عضد المحدثين والعامة وأحزنتهم ونعى أحمد بن حنبل على من وافقوا المأمون على رأيه هذا الخضوع للسلطان ، وكان يقول إنهم لو خالفوه حينذاك لنامت الفتنة قبل أن تستفحل .

أما إمبراطور القسطنطينية فقد دعا إلى مجامع كثيرة وتاريخ هذه المجامع طويل . والذى يهمنا منه الآن هو أن أقوى أسلحة المناقشة فى هذه المجامع لم تكن للحجة والاقتناع ، وإنما كانت للقوة والمال وعدد الأتباع . ووقعت حوادث عنيفة جدًّا فى هذه المجامع التى وصفت بعد بأنها مقدسة ، فحدث فى مجمع أفيسوس الثانى أن بطريق الاسكندرية شتم زميله بطريق القسطنطينية ورفسه وضربه ضرباً أدى إلى موته بعد أيام ، وأحاط الجنود بالقسس الحاضرين فهرب هؤلاء تحت الكراسى ووراء المنبر ووضعوا إمضاءاتهم على أوراق بيضاء ملئت بعد ذلك بالطعن على بطريق الاسكندرية .

٥ — كان لموت الأمراء أثر ظاهر فى تاريخ الحركتين . فلما مات الواثق وبويع للمتوكل لم يتحمس للقول بخلق القرآن ولم يحمل الناس عليه ونامت الفتنة ، وقيل للفريقين إذ كان قد وسع النبي والصحابة أن يسكتوا عن ذلك فهلا وسعكم ما وسعهم .

وحدث أن وقع الإمبراطور من فوق فرسه ومات ، فتغيرت الحال وانقلب المهزومون إلى منصورين وغالى هؤلاء فى الانتقام من أعدائهم وساموهم سوء العذاب على ما ارتكبوا حين كان السلطان معهم . وقال الإمبراطور الله يشهد أنه غير مسئول عن هذه الفوضى ، وحمل بذلك المتخاصمين كيرولس ويوحنا صاحب أنطاكية على التصافح فتصافحا خشية وحذراً لا عن التسامح القلبى الذى تدعو إليه المسيحية .

وكذلك حدث عند المسلمين عند ما انتصر الحنابلة أن انتقموا لأنفسهم من المعتزلة وكالوا لهم بكيلهم وتمكنوا من الحكومة فأسرفوا فى حمل الناس على اتباع مبادئهم بالعنف .

هذا مجمل تاريخ محنتين متشابهتين فى أهم مظاهرهما ، وهو توافق فى الواقع غريب جدًّا حين نذكر أنه لا تكاد توجد بينهما علاقة تاريخية أصلا .

دكتور محمد كامل حسين
أستاذ جراحة العظام بكلية الطب